بسم الله الرحمن الرحيم (ضرر التفاسير الجديدة أقرب من نفعها)

١) حفظ الله كتابه الكريم من حيث اللفظ بالرسم العثماني نسبةً إلى عثمان ابن عفان الخليفة المهدي الراشد الثالث رضي الله عنه وأرضاه وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء وأجزل الثواب، إذ جمع القرآن في عهده بأمره على حرف واحد، وأحرقت بقية الصحف منعاً للاختلاف ولا يزال المسلمون ملتزمين برسم عثمان رضي الله عنه مهما اختلفوا في غيره من أمور الدين والدنيا.

٢) وحفظ الله كتابه الكريم من حيث المعنى بما سُمّي (التفسير بالمأثور) مما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته رضي الله عنهم وأئمة الفقه في الدين (الكتاب والسنة) من التابعين رحمهم الله تعالى.

٣) وخير التفاسير وأشملها وأوعاها تفسير الإمام ابن جرير الطبري (ت ٣١٠) رحمه الله تعالى، وهو من أئمة الفقه في القرون الخيّرة التي اصطفاها الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم: «خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» ووصف قوماً بعدهم بأنهم «يخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون» رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري.
ولقد عددت له نحواً من تسعين رواية في تفسير بضع كلمات من سورة البقرة، وإذا لم يسبقه بمثل هذا الجهد والصبر على جمع ما أثر من التفسير فالأحرى ألا يلحق به يوم قلّ العلماء والعلم والبركة.

٤) وكما اتفق علماء الأمة على أن خير ما يفسّر به القرآن: الآية من كتاب الله والحديث من السنة، ثم الأثر من أقوال الخلفاء الراشدين المهديين ثم بقية الصحابة ثم التابعين؛ فقد اتفقوا على أن شرّ ما يفسّر به القرآن: الرأي.

٥) والمؤمن على يقين يلقى عليه ربه أن النبي صلى الله عليه وسلم بيّن للأمة ما أنزل الله إليه استجابة لقضاء الله تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نزّل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾ فالرأي والفكر ما لم يقيّد بالتنزيل من الله تعالى والتبيين من رسوله صلى الله عليه وسلم فهو من الهوى، فإنه مقيّد بالدليل من الكتاب والسنة والفقه الأول (من أهله) خير ما فرق الفقه في الدين، وإلا كان قولاً على الله بغير علم وأخطأ مقترفه ولو أصاب، لخروجه عن منهاج السنة.

٦) وإيماناً أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بيّن للناس ما نزّل إليهم من آيات ربهم (ديناً نديه لله به) وأن الله قد أكمل دينه وأتم نعمته قبل موت النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ وأن الصحابة رضي الله عنهم

وأرضاهم (رضي الله عنهم ورضوا عنه) هم خير هذه الأمة وأعدلها وأنصحها لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، وأن القرون الثلاثة الأولى خير القرون، لهذا كله فلم وليته يكتب تفسيراً لكتاب الله يقره شرع الله (وعقل المؤمن) غير ما انتهت إليه القرون الخيرة.

٧) زرت الشيخ د. بكر أبو زيد عضو هيئة كبار العلماء واللجنة الدائمة للإفتاء رحمه الله في مكتبه بالرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء بالرياض أعرض عليه رأيي في إصدار الهيئة واللجنة فتوى بعدم طبع تفاسير جديدة وعدم إعادة طبع ما طبع منها لعدم الحاجة إلى أصلاً (وهو ما نقل عن التفاسير الأولى) الاقتصار بالأصل وسد باب القول على الله بغير علم بأعمال الفكر القاصر أو الضال (من ابن عزيز إلى سيد قطب) تجاوز الله عنهم لم يتعمد الابتداع والإضلال من الخاطئين بنهجا ومن بعدهم.

وأثنى علي رحمه الله وانشغل عن قضيتي بشكوى معاناته من جرأة القاصرين في العلم والبحث والتحقيق وهجرهم الشامل على الحديث (الوحي الثاني) تصحيحاً وتحسيناً وتضعيفاً، فاجتمع المفسرون القاصرون مع المحدثين القاصرين على القول على الله ورسوله بغير علم (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً) استغلالاً لإقبال الشباب على ملء رفوف مكتباتهم بالمجلدات المزخرفة التي لم تمس إلا نادراً.

وذكرني الشيخ د. بكر رحمه الله أني ساهمت في الرجوع على التفسير بتهذيبي (تفسير الجلالين) بمعاونة اثنين من طلاب العلم (والشيخ رحمه الله لا يرغب في التهذيب عامة خوفاً من تغيير منهج مؤلف الأصل أو الاعتداء على فقهه)، وذكرته أن تغيير المنكر واجب، للرأي بيده، ولمن دونه بلسانه أو قلمه أو قلبه بقدر استطاعته، وفي تفسير الجلالين أخطاء أشعرية وفكرية لا تبرأ الذمة بغير إنكارها، وقد أنكر طلاب العلم أكثرها على هامش التفسير أو في رسائل مستقلة لا يستفيد منها القارئ (إذا لم تضمه المتن) استفادة شاملة.

وقد صححت تفسير الجلالين شهوراً عديدة (بعد طبعه على هامش المصحف) في محاولة للجمع بين التلاوة والتدبر واختزله لوجازته وشموله (دون غيره فيما أعلم) ورأيت من حول الله وكتابه ومن حوله المحلي والسيوطي تنقيته من الفكر المبتدع والإضافة النادرة مما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم.

٨) والتهذيب غير التأليف؛ فالمهذِّب يختار المهذَّب ليتميَّزه فيأخذ خير ما فيه ويترك أدناه، وخير ما فعل المهذِّبون للصَّالحي من التقاسيم تنقيحهم من الإسرائيليات التي تسلَّل لها المفسِّرون منذ القرن الأوَّل في رواياتهم (لا مصدِّقين بها ولا مكذِّبين)، والأولى ألَّا نخلط اليقين المحض بالظنِّ المحتمل بعد ثبوت التحريف والتبديل.

ولم يَرُدْني بُغض الشيخ د. بكر رحمه الله التهذيب (مطلقًا) فاخترت تفسير ابن كثير رحمه الله، وهو فيما أرى تهذيبٌ لتفسير ابن جرير رحمه الله، فقد وفَّق الله للثبات على الفقه في الدِّين، وتفسير القرآن بالقرآن والحديث والأثر، وبذكر أسماء الرُّواة وبتحاشي التزام ابن جرير رحمه الله بإسناد الرِّوايات بطولها وتعدُّدها.

وكان أحد علماء قطر الشيخ وليد بن هادي (محمه جمع الله له العلم والخلق الكريم) رأى لي (حُسْن ظنٍّ في غير أهله) وضع تفسير جديد فبيَّنت له عدم أهليَّتي لمثل هذا العمل العظيم، ولو فعلتُ لما أتيتُ بجديد، فالدِّين وأعظم (الموقِّعين عن رب العالمين) في لفظ ابن القيِّم رحمه الله) أو الحاكم على مراد الله من كلامه لا يجوز أن يتجرَّأ عليه علماء اليوم فضلًا عمَّن كان مثلي ممَّن بلغ من العلم شهادة جامعيَّة أو عالية في الشريعة وأدنى منه من كان مبلغه من العلم القصص الوعظي أو مجرَّد العاطفة الدِّينيَّة والثَّقافة الإسلاميَّة بزعمهم.

والدِّين - على أيِّ حال - يَصْدُق عليه وصف (الجهبي) أكثر من (التقدمي والعصري) أو ما يسمِّيه المخرِّفون: (الإسلام اليوم)، وما لم يكن دينًا في القرن الأوَّل فلن يكون دينًا أبدًا، سواء نصَّه أو فرَّعه.

ولكني فرحًا بحُسْن ظنِّ الشيخ الكريم واغتنامًا لفضل الله وفضله عليَّ خصَّصتُ الوقت بين صلاة المغرب وصلاة العشاء في المسجد المجاور لمنزلي لتهذيب تفسير ابن كثير، وكنت أثناء التهذيب أنظر في تفسير ابن جرير لتتبُّع موافقات ابن كثير الكثيرة له ومخالفاته القليلة له، فأجد في تفسير ابن جرير ما لا أجده في غيره وما يغنيني ويغني غيري عن أيِّ تفسير قديم أو حديث رحمهما الله وأسكنهما فسيح جناته.

وحينما أنهيت تهذيب تفسير ابن كثير شرعت في تهذيب تفسير ابن جرير وامتدَّ عشت حتى أتولَّى طباعته في مجلَّد واحد أو مجلَّدين أثناء المحاولة فلعلَّ الله أن يتقبَّل العمل ويُعينه على إتمامه وينفع به وبجمعه خالصًا لوجهه ويتجاوز عن النقص والتقصير، ولا أحبُّ لإخواني المؤمنين غير ما أحببت لنفسي من الثبات على النَّهج الأول: ما كان عليه النبي وأصحابه ﷺ.